آجلا كمن يتمنى غلاء الاقوات التي فى غلائها هلاك الناس وكمن يتمنّى بعض الامور التي فيها الضرر لغيره وان كانت له فيها منفعة فان تأميله ما يؤمل من ذلك لايعجل له ذلك قبل وقته ولا يأتيه من ذلك بما ليس فى علم الله تعالي تكوّنه فلو تمنى الخير والرخاء لتعجل الاجر والراحة والفضيلة ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها فاعجبوا لفساد هذه الاخلاق بلا منفعة

﴿ فصل فى مداوة أدواء الاخلاق الفاسدة ﴾

من امتحن بالعجب فليفكر فى عيوبه فان أعجب بفضائله فليفتش مافيه من الاخلاق الدنيئة فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لاعيب فيه فليعلم أن مصيبته الى الأبد وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزاً وأول ذلك انه ضعيف العقل جاهل ولاعيب أشد من هذين لان العاقل هو من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعى فى قمعها والاحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتميزه وضعف فكرته واما لانه يقدّر ان عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الارض وفى الناس كثير يفخرون بالزنا واللياطة والسرقة والظلم

فيعجب بتأتي هـذه النحوس له وبقوّته على هـذه المخازي (واعـلم) يقيناً أنه لايسلم إنسي من نقص حاشا الانبياء صلوات الله عليهم فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقـد سقط وصار من السخف والضعة والرذالة والخسـة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لايتخلف عنـه متخلف من الارذال وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الاعجاب بهاوعن عيوب غيره التي لاتضره لافى الدنيـا ولافى الآخرة وما أدري لسماع عيوب الناس خصلة إلا الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها ويسعى فى ازالة مافيه منها بحول الله تعالى وقوته

واما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لايسوغ أصـلا والواجب اجتنابه الا في نصيحة من يتوقـع عليـه الأذى بمداخلة المعيب أو على سبيل تبكيت المعجب فقط في وجهه لاخلف ظهره ثم يقول للمعجب إرجع الى نفسك فاذامیزت عيوبها فقد داويت عجبك ولاتمثل بين نفسك وبين من هو أكثر عيوبا منها فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لاهل الشر وقد ذُمَّ تقليد أهل الخير فكيف تقليد أهل الشر لكن مثّل

بين نفسك وبين من هو أفضل منك فحينئذ يتلف عُجبك وتُفيق من هـذا الداء القبيح الذي يولّد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا شك من هو خير منك فاذا استخففت بهم بغير حق استخفوا بك بحق لان الله تعالى يقول « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها » فتولّد على نفسك أن تكون أهلاً للاستخفاف بك بل على الحقيقة مع مقت الله عزوجل وطمس مافيك من فضيلة . فان أعجبت بعقلك ففكّر في كل فكرة سوءٍ تحل بخاطرك وفي أضاليل الاماني الطائفة بك فانك تعلم نقص عقلك حينئذ . وان أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها وفى كل رأي قدّرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك واخطأت أنت فانك ان فعلت ذلك فأقل أحوالك ان يوازن سقوط رأيك بصوابه فتخرج لالك ولا عليك والأغلب ان خطأك أكثر من صوابك وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين صلوات الله عليهم . وان أعجبت بعملك فتفكر فى معاصيك وفي تقصيرك وفي معاشك ووجوهه فوالله لتجدن من ذلك مايغلب على خيرك ويعفي على حسناتك فليطل همك حينئذ

وأبدل من العجب تنقصاً لنفسك . وان أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله مجردة وهبك اياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ماعلمت وحفظت . ولقد أخبرني عبد الملك بن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الاحوال وصحة البحث انه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج الى استعادته وانه ركب البحر فمرّ به فيه هولٌ شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ وأخل بقوة حفظه إخلالا شديداً لم يعاوده ذلك الذكاء بعد . وانا أصابتني علة فأفقت منها وقد ذهب ما كنت أحفظ الا مالا قدر له فما عاودته الا بعد أعوام . واعلم ان كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدّون في القراءة والاء كباب على الدروس والطلب ثم لا يرزقون منه حظاً فليعلم ذو العلم انه لو كان بالاء كباب وحده لكان غيره فوقه فصحّ انه موهبة من الله تعالى فأيّ مكان للعجب هاهنا ماهذا الا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها . ثم تفكر أيضاً في أن ماخفي عليك وجهلته من أنواع العلم ثم من أصناف علمك

الذي تختص به فالذي أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك فاجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك واستقصاراً لها فهو أولى وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً فلتهن نفسك عندك حينئذ وتفكر في إخلالك بعلمك وانك لا تعمل بما علمت منه فلعلمك عليك حجة حينئذ ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالماً واعلم ان الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالا وأعذر فليسقط عجبك بالكلية ثم لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة فيها كالشعر وما جرى مجراه فانظر حينئذ الى من علمه أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة فتهون نفسك عليك وان أعجبت بشجاعتك فتفكر فيمن هو أشجع منك ثم انظر في تلك النجدة التي منحك الله تعالى فيم صرفتها فان كنت صرفتها في معصية فأنت أحمق لانك بذلت نفسك فيما ليس ثمناً لها وان كنت صرفتها في طاعة فقد أفسدتها بعجبك ثم تفكر في زوالها عنك بالشيخوخة وانك ان عشت فستصير من عدد العيال وكالصبي ضعفاً . على اني ما رأيت العجب في طائفة أقل منه في أهل الشجاعة فاستدللت بذلك على نزاهة

أنفسهم ورفعتها وعلوها وان أعجبت بجاهك في دنياك فتفكر في مخالفيك وأندادك ونظرائك ولعلهم أخساء وضعفاء سقّاط فأعلم انهم أمثالك فيما أنت فيه ولعلهم ممن يستحيا من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم في أنفسهم وأخلاقهم ومناسبهم فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرت لك وان كنت مالك الارض كلها ولا مخالف عليك وهذا بعيد جداً في الامكان فما نعلم أحداً ملك معمور الارض كله على قلته وضيق ساحته بالاضافة الى غامرها فكيف اذا أضيف الى الفلك المحيط فتفكر فيما قال ابن السمّاك [1] للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له يا أمير المؤمنين فلو مُنعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد بملكي كله قال يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدي من ذلك قال بملكي كله قال يا أمير

(١) هو أبو العباس محمد بن صُبَيح الكوفي الزاهد المشهور أخذ عن هشام بن عروة والاعمش وغيرهما وروى عنه أحمد بن حنبل وأنظاره ومن كلامه خف الله كأنك لم تطعه وارجُ الله كأنك لم تعصه ، مات بالكوفة سنة ١٨٣ هـ من تاريخ ابن خلكان

المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء وصدق ابن السماك رحمه الله . وان كنتَ ملك المسلمين كلهم فاعلم أن ملك السودان وهو رجل اسود رَذْل مكشوف العورة جاهل بملك أوسع من ملكك . فان قلت أنا أخذته بحق فلعمري ما أخذته بحق اذا استعملت فيه رذيلة العجب واذا لم تعدل فيه فاستحي من حالك فهي حالة رذالة لا حالة بجب العجب فيها وان أعجبت بمالك فهذه أسوء مراتب العجب فانظر في كل ساقط خسيس هو أغنى منك فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت (واعلم) أن عجبك بالمال حمق لانه أحجار لا تنتفع بها الا أن تخرجها عن ملكك بنفقتها في وجهها فقط والمال أيضاً غاد ورائح وربما زال عنك ورأيته بعينه في يد غيرك ولعل ذلك يكون في يد عدوك فالعجب بمثل هذا سخف والثقة به غرور وضعف . وان أعجبت بحسنك ففكر فيما يولد عليك مما نستحي نحن من اثباته وتستحي أنت منه اذا ذهب عنك بدخولك في السن وفيما ذكرنا كفاية . وان أعجبت بمدح اخوانك لك ففكر في ذم أعدائك اياك فحينئذ ينجلي عنك العجب فان لم يكن لك عدوٌ فلا خير فيك ولا منزلة

اسقط من منزلة من لا عدو له فليست الا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها عافانا الله . فان استحقرت عيوبك ففكر فيها لو ظهرت الى الناس وتمثل اطلاعهم عليها فحينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك ان كانت لك مسكة من تمييز (واعلم) بانك ان تعلمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الاخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة فى النفس فستقف من ذلك وقوف يقين على أن فضائلك لا خصلة لك فيها وانها منح من الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك وانك لو وُكلت الى نفسك لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك اياها واشفاقاً من زوالها فقد تتغير الاخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم وارحم من مُنع ما منحت ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعاصي على واهبها تعالى وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقاً فتقدر انك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا وآجلا. ولقد أصابتني علة شديدة ولّدت عليّ ربواً فى الطحال شديداً فولّد ذلك عليّ من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسي فيه إذ انكرت تبدّل خلقي واشتدّ عجبي

من مفارقتي لطبعي وصحّ عندي أن الطحال موضع الفرح اذا فسد تولّد ضده [١] وان أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا لأنّ هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلا فى دنيا ولا آخرة وانظر هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك فى آخرتك ثم انظر الى من يساهمك في نسبك وربما فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام ثم ولادة الخلفاء ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ثم ولادة ملوك العجم من الاكاسرة والقياصرة ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الاسلام فتأمل غبّراتهم [٢] وبقاياهم ومن يدلي بمثل ما تدلي به من ذلك تجداً كثرهم أمثال الكلاب خساسة وتلفهم في غاية السقوط والرذالة والتبذّل والتحلّي بالصفات المذمومة فلا تغتبط بمنزلتهم فيها نظراؤك أو فوقك. ثم لعل الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقاً وشربة خمور ولاطة ومتعبثين ونوكى [٣] أطلقت الايام أيديهم بالظلم والجور فأنتجوا ظالماً وآثاراً قبيحة تبقي عارهم بذلك الايام ويعظم إثمهم

(١) ليتأمل هذا بعض الاطباء القائلين إن الطحال لا فائدة له

(٢) أي بقاياهم وهو جمع غبّر جمع لغابر (٣) جمع أنوك وهو الاحمق

والندم عليها يوم الحساب فان كان كذلك فاعلم أن الذي أعجبت به من ذلك داخل فى العيب والخزي والعار والشنار لا فى الاعجاب . فان أعجبت بولادة الفضلاء اياك فما أخلى يدك من فضلهم ان لم تكن أنت فاضلا وما أقل غناهم عنك فى الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنا والناس كلهم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته ولكن ما أقلّ نفعه لهم وفيهم كل معيب وكل فاسق وكل كافر واذا فكّر العاقل فى أن فضل آبائه لا يقرّبه من ربه تعالى ولا يكسبه وجاهة لم يحزها هو بسعده أو بفضله في نفسه ولا ما لاً فأي معنى للاعجاب بما لا منفعة فيه وهل المعجب بذلك الا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه كما تقول العامة في أمثالها كالغبيّ يُزهى بذكاء أبيه فان تعدّى بك العجب الى الامتداح فقد تضاعف سقوطك لانه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب هذا ان امتُدحت بحق فكيف ان امتدحت بالكذب وقد كان ابن نوح وأبو ابراهيم وأبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى وممن الشرف

كله فى اتّباعهم فما انتفعوا بذلك وقد كان فيمن وُلِد لغير رِشدة[1] من كان الغاية في رياسة الدنيا كزيادٍ وأبي مسلم ومن كان نهاية في الفضل على الحقيقة كبعض من نجلّه عن ذكره في مثل هذا الفصل ممن يتقرّب الى الله تعالى بحبه والاقتداء بحميد آثاره وان أعجبت بقوة جسمك فتفكر في ان البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال وان أعجبت بخفتك فاعلم ان الكلب والارنب يفوقانك فى هذا الباب فمن العجب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق

واعلم ان من قدّر في نفسه عجبا أو ظنّ لها على سائر الناس فضلا فلينظر الى صبره عند ما يدهمه من همٍّ أو نكبة أو وجع أو دمّل أو مصيبة فان رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم ان جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز وان رأى نفسه صابرة فليعلم انه لم يأت بشيء يسبق فيه على ماذكرنا بل هو إما متأخر عنهم في ذلك أو مساوٍ لهم ولا مزيد ثم لينظر الى سيرته وعدله أو جوره فيما خوله الله من نعمة أو مالٍ أو خَوَل أو

(١) يقال ولد لغير رَشدة بفتح الراء وكسرها أي لغير نكاح صحيح

أتباع أو صحة أو جاه فإن وجد نفسه مقصّرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ووجدها حائفة في العدل فليعلم ان أهل العدل والشكر والسيرة الحسنة من المخوّلين أكثر مما هو فيه أفضل منه فان رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيد عن العجب البتة لعلمه بموازين الاشياء ومقادير الاخلاق والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين فان أعجب فلم يعدل بل قد مال الى جنبة[1] الافراط المذمومة

واعلم أن التعسف وسوء الملكة لمن خوّلك الله تعالى أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل لان العاقل الرفيع النفس العالي الهمة إنما يغلب أكفاءه في القوة ونظراءه في المنعة وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق وعجز ومهانة ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجّح بقتل جرذ[2] أو بقتل برغوث أو بفرك قملة وحسبك بهذا ضعة وخساسة

واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأُسد لان

(١) أي الى ناحية وجانب (٢) الجرذ كقنفذ ضرب من الفأر

الأسد اذا سجنت في البيوت التي تتخذ لها الملوك أُمن شرها والنفس وان سجنت لم يؤمن شرها

العجب أصل يتفرع عنه التيه والزهوُ والكبر والنخوة والتعالي وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ولذلك صعب الفرق بينها على أكثر الناس فقد يكون العجب لفضيلة في المعجب ظاهرة فمن معجب بعلمه فيكفهرّ ويتعلق على الناس ومن معجب بعمله فيترفّع ويتعالى ومن معجب برأيه فيزهو (١) على غيره ومن معجب بنسبه فيتيه ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر ويتنخّى . وأقل مراتب العجب أن تراه يتوفّر عن الضحك في مواضع الضحك وعن خفة الحركات وعن الكلام الا فيما لا بدّ له من أمور دنياه وعيب هذا أقلّ من عيب غيره ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلا وموجبا لحمدهم ولكن انما يفعلون ذلك احتقاراً للناس وإعجابا بأنفسهم فخصل

(١) قال ابن سيده وقد زهي على لفظ مالم يسم فاعله جزم به أبو زيد واحمد بن يحيي وحكى ابن السكيت زهيت وزهوت وحكى ابن دريد زها يزهو زهواً اي تكبر ومنه قولهم ما ازهاه اه من لسان العرب

لهم بذلك استحقاق الذم وإنما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى حتى اذا زاد الامر ولم يكن هناك تمييز يحجب عن توفية العجب حقه ولا عقل جيد حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام وفي المعاملة حتى اذا زاد ذلك وضعف التمييز والعقل ترقّى ذلك الى الاستطالة على الناس بالاذى بالايدي والتحكم والظلم والطغيان واقتضاء الطاعة لنفسه والخضوع لها إن أمكنه ذلك فان لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم . وقد يكون العُجْب لغير معنى ولغير فضيلة فى المعجب وهذا من عجيب ما يقع فى هذا الباب وهو شيء يسميه عامتنا التَّمَتْرُك وكثيراً ما نراه في النساء وفيمن عقله قريب من عقولهن من الرجال وهو عُجْبُ من ليس فيه خصلة أصلاً لا علم ولا شجاعة ولا علوّ حال ولا نسب رفيع ولا مال يطغيه وهو يعلم مع ذلك أنه صفر من ذلك كله لان هذه الامور لا يغلط فيها من يقذف بالحجارة وإنما يغلط فيها من له أدنى حظ منها فربما يتوهم ان كان ضعيف العقل أنه قد بلغ الغاية القصوى منها كمن له حظ من علم فهو يظن أنه عالم كامل أو كمن له نسب

مُغرِق فى ظلمة وتجدهم لم يكونوا أيضاً رُفعاء فى ظلمهم فتجده لو كان ابن فرعون ذي الاوتاد ما زاد على اعجابه الذى فيه أوله شيء من فروسية فهو يقدّر أنه يهزم علياً ويأسر الزبير ويقتل خالداً أوله شيء من جاهٍ وذُلٍ فهو لا يرى الإسكندر على حال أو يكون قوياً على ان يكسب مايتوفر بيده مُوبِلٌ يفضل عن قوته فلو أخذ بقرني الشمس لم يزد على ماهو فيه وليس يكثر العجب من هؤلاء وان كانوا عجباً لكن ممن لاحظّ له من علم أصلا ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه ولا نجدة بل تراه في كفالة غيره مهتضماً لكل من له أدنى طاقة وهو يعلم أنه خال من كل ذلك وأنه لاحظّ له فى شيء من ذلك ثم هو مع ذلك فى حالة المزهوّ التيّاه ولقد تسببتُ الى سؤال بعضهم فى رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدت عنده مزيداً على ان قال لى أنا حرّ لست عبد أحد فقلت له أكثر من تراه يشاركك فى هذه الفضيلة فهم احرار مثلك الا قوماً من العبيد هم أطول منك يداً وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الاحرار فلم أجد عنده زيادة فرجعت الى تفتيش أحوالهم ومراعاتها ففكّرت فى

ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذى لاسبب له فلم أزل أختبر ماتنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مراميهم فى كلامهم فاستقرّ أمرهم على أنهم يقدّرون أن عندهم فضل عقل وتميز رأي أصيل لو أمكنتهم الايام من تصريفه لوجدوا فيه متسعاً ولأداروا الممالك الرفيعة ولبان فضلهم على سائر الناس ولوملكوا مالا لأحسنوا تصريفه فمن هاهنا تسرّب اليهم وسرى العجب فيهم وهذا مكان فيه للكلام شعب عجيب ومعارضة معترضة وهو أنه ليس شيء من الفضائل كلما كان المرء منه أعرى قوي ظنه فى انه قد استولى عليه واستمرّ يقينه فى انه قد كمل فيه الا العقل والتمييز حتى انك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح والجاهلَ الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء والصبيانَ الصغار يتهكّمون بالكهول والسفهاء العيارين يستخفون بالعقلاء المتصاونين وضعفة النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم وبالجملة فكلما نقص العقل توهّم صاحبه انه أوفر الناس عقلاً وأكمل تمييزاً ولا يعرض هذا فى سائر الفضائل فان العاري منها جملة يدري أنه عار منها

وانما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها وان قل فإنه يتوهم حينئذ إن كان ضعيف التمييز أنه عالي الدرجة فيه ودواء من ذكرنا الفقر والخمول فلا دواء لهم أنجع منه وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدًا فلا تجدهم الا عيّابين للناس وقاعين في الاعراض مستهزئين بالجميع مجانبين للحقائق مكبّين على الفضول وربما كانوا مع ذلك متعرّضين للمشاتمة والمهارشة وربما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم . وقد يكون العجب كميناً في المرء حتى اذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه وعجز عقله عن قمعه وستره . ومن ظريف مارأيت في بعض أهل الضعف ان منهم من يغلبه مايضمر من محبة ولده الصغير وامرأته حتى يصفها بالعقل في المحافل وحتى انه يقول هي أعقل مني وأنا أتبرّك بوصيتها . وأمامدحه اياها بالجمال والحسن والعافية فكثير في أهل الضعف جدًا حتى كأنه لو كان خاطبها مازاد على مايقول في ترغيب السامع في وصفها ولا يكون هذا الا في ضعيف العقل عار من العجب بنفسه

اياك والامتداح فإن كل من يسمعك لا يصدّقك وان

كنت صادقاً بل يجعل ماسمع منك من ذلك في أول معايبك وإياك ومدحَ أحد فى وجهه فإنه فعلُ أهل الملَق وضَعَة النفوس وإياك وذمَّ أحد لا بحضرته ولا فى مغيبه فلك فى اصلاح نفسك شغل وإياك والتفاخر فانك لاتحصل من ذلك الا على تكذيبك أو احتقار من يسمعك ولا منفعة لك فى ذلك أصلاً إلا كفر نعمة ربك تعالى أو شكواه الى من لا يرحمك وإياك ووصف نفسك باليسار فإنك لاتزيد على اطلاع السامع فيما عندك ولا تزدعلى شكر الله تعالى وذكر فقرك اليه وغناك عمن دونه فان هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك

العاقل هو من لايفارق ما أوجبه تمييزه

من سبَّب للناس الطمع فيما عنده لم يحصل الا على أن يبذله لهم ولا غاية لهذا أو يمنعهم فيلومُ ويعادونه فإذا أردت ان تعطي أحداً شيئاً فليكن ذلك منك قبل ان يسألك فهو أكرم وأنزه وأوجب للحمد

من بديع مايقع في الحسد قول الحاسد اذا سمع انساناً يُغرب فى علمٍ ما هذا شيء بارد لم يتقدم اليه ولا قاله قبله أحد

فإن سمع من يبين ما قد قاله غيره قال هذا بارد وقد قيل قبله وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال

الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله وقد شاهدت أقواماً ذوي طبائع ردية وقد تصور في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على مثل طبائعهم لا يصدقون أصلاً بأن أحداً هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه وهذا أسوء مايكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير ومن كانت هذه صفته لا ترجى لها معاناة أبداً وبالله تعالى التوفيق

العدل حصن يلجأ اليه كل خائف وذلك انك ترى الظالم وغير الظالم اذا رأى من يريد ظلمه دعا الى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه ولا ترى أحداً يذم العدل فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين

الاستهانة نوع من أنواع الخيانة اذ قد يخونك من لا يستهين بك ومن استهان بك فقد خانك الانصاف فكل مستهين خائن وليس كل خائن مستهيناً . الاستهانة بالمتاع

دليل على الاستهانة برب المتاع

حالان يحسن فيهما مايقبح في غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار فانه يحسن فيهما تعديد الأيادي وذكر الاحسان وذلك غاية القبح في ماعدا هاتين الحالتين

لاعيب على من مال بطبعه الى بعض القبائح ولو انه أشد العيوب وأعظم الرذائل مالم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحد ممن أعانه طبعه على الفضائل ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد الا عن قوّة عقل فاضل

الخيانة في الحرم أشد من الخيانة في الدماء

العرض أعز على الكريم من المال . ينبغي للكريم ان يصون جسمه بماله ويصون نفسه بجسمه ويصون عرضه بنفسه ويصون دينه بعرضه ولا يصون بدينه شيئاً أصلاً .

الخيانة في الاعراض أخف من الخيانة في الاموال وبرهان ذلك انه لايكاد يوجد من لايخون في العرض وإن قلّ ذلك منه وكان من أهل الفضل وأما الخيانة في الأموال وان قلت أو كثرت فلا تكون الا من رذل بعيد عن الفضل

القياس في أحوال الناس قد يكذب في أكثر الأمور

ويبطل فى الأغلب واستعمال ماهذه صفته في الدين لايجوز

المقلّد راضٍ أن يُغبن عقله ولعله مع ذلك يستعظم ان يغبن فى ماله فيخطيء في الوجهين معاً

لايكره الغبن فى ماله ويستعظمه الا لئيم الطبع دقيق الهمة مهين النفس

من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فانه يحتوي على جميع الفضائل

ربّ مخوف كان التحرز منه سبب وقوعه . ورب سر كانت المبالغة فى طيه سبب انتشاره . ورب إعراض أبلغ في الاستريابة من إدامة النظر . وأصل ذلك كله الإفراط الخارج عن حد الاعتدال

الفضيلة وسيطة بين الافراط والتفريط فكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما محمودة حاشا العقل فانه لا إفراط فيه

الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع

من العجائب ان الفضائل مستحسنة ومستثقلة والرذائل مستقبحة ومستخفّة

من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه فانه يلوح

له وجه تعسفه

حد الحزم معرفة الصديق من العدو . وغاية الخرق والضعف جهل العدوّ من الصديق

لا تسلم عدوّك لظلم ولا تظلمه وساو فى ذلك بينه وبين الصديق وتحفّظ منه وإياك وتقريبه وإعلاء قدره فان هذا من فعل النوكى . من ساوى بين عدوه وصديقه فى التقريب والرفعة فلم يزد على أن زهّد الناس فى مودته وسهّل عليهم عداوته ولم يزد على استخفاف عدوه له وتمكنه من مقاتله وإفساد صديقه على نفسه وإلحاقه بجملة أعدائه

غاية الخير ان يسلم عدوّك من ظلمك ومن تركك إياه للظلم وأما تقريبه فمن شيم النوكى الذين قد قرب منهم التلف . وغاية الشرّ أن يسلم صديقك من ظلمك وأما ابعاده فمن فعل من لا عقل له ومن كتب عليه الشقاء . ليس الحلم تقريب الاعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم

كم رأينا من فاخر بما عنده من المتاع كان ذلك سبباً لهلاكه فاياك وهذا الباب الذي هو ضرّ محض لا منفعة فيه أصلا

كم شاهدنا ممن أهلكه كلامه ولم نرقط أحداً ولا بلغنا

أنه أهلكه سكوته فلا تتكلم إلا بما يقربك من خالقك فان خفت ظالماً فاسكت

فلما رأيت أمراً أمكن فضيع إلا فات فلم يمكن بعد

محن الانسان فى دهره كثيرة وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس

داء الانسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة والأفاعي الضارية لأن التحفظ من كل ماذكرنا ممكن ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا

الغالب على الناس النفاق ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلا من نافقهم

لو قال قائل إن فى الطبائع كرية لأن أطراف الأضداد تلتقي لم يبعد من الصدق. وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى فنجد المرء يبكي من الفرح ومن الحزن ونجد فرط المودة يلتقي مع فرط البغضة في تتبع العثرات وقد يكون ذلك سبباً للقطيعة عند عدم الصبر والانصاف

كل من غلبت عليه طبيعة ما فانه وان بلغ الغاية من الحزم والحذر فانه مصروع اذا كيد من قبلها

كثرة الرِّيَب تُعلِّم صاحبها الكذب لكثرة ضرورته الى الاعتذار بالكذب فيضرَى عليه ويستسهله

أعدل الشهود على المطبوع على الصدق وجهُ ظهور الاسترابة عليه إن وقع فى كذبة أوهمّ بها . وأعدل الشهود على الكذاب لسانُه لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضا

المصيبة في الصديق الناكث أعظم من المصيبة به

أشد الناس استعظاماً للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالاً لها بفعله ويتبين ذلك فى مسافهات أهل البذاء ومشاتمات الارذال البالغين غاية الرذالة من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء كأهل التعيش بالزمر وكنس الحشوش والخادمين فى المجازر وكساكني دور الجمل المباحة لكراء الجماعات والسَّاسة للدواب فإن كل من ذكرنا أشدّ الخلق رميا من بعضهم لبعض بالقبائح وأكثرهم عيباً بالفضائح وهم أوغل الناس فيها وأشرههم بها

اللقاء يذهب بالسخائم فكأنّ نظر العين للعين يصلح القلوب فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوّك فان ذلك يفتر أمره عنده

أشد الاشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر وأشدها كلها إيلاماً للنفس الهم للفقد من المحبوب وتوقع المكروه ثم المرض ثم الخوف ثم الفقر ودليل ذلك أن الفقر يستعجل ليطرد به الخوف فيبذل المرء ماله كله ليأمن والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما ألم المرض فيفر الانسان فى طلب الصحة ويبذل ماله فيها اذا أشفق من الموت ويود عند تيقنه به لو بذل ماله كله ويسلم ويفيق والخوف يستسهل ليطرد به الهم فيفر المرء بنفسه ليطرد عنها الهم وأشد الامراض كلها ألماً وجع ملازم فى عضو مابعينه . وأما النفوس الكريمة فالذي عندها أشد من كل ما ذكرنا وهو أسهل المخوفات عند ذوي النفوس اللئيمة . ومما قلته فى الاخلاق

انما العقل أساس فوقه الاخلاق سورُ
فحلي العقل بالعلم والا فهو بورُ
جاهل الاشياء أعمى لا يرى كيف يدور
وتمام العلم بالعمـ ـل والا فهو زور
وزمام العدل بالجـ ـود والا فيجور
وملاك الجود بالنجـ ـدة والجبن غرور

عفّ ان كنت غيو راً ما زني قط غيور
وكمال الكلّ بالتقـــوى وقولُ الحق نور
ذي أصول الفضل عنهـــا حدّثت بعدُ البُدور

ومما قلته أيضاً

زمام أصول جميع الفضائل عَدْلٌ وفهم وجود وباسُ
فمن هذه ركبت غيرها فمن حازها فهو في الناس راس
كذا الرأس فيه الامور التي باء حساسها يكشف الالتباس

﴿ فصل في غرائب أخلاق النفس ﴾

ينبغي للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم وتشكّيه وشدة تلوّيه وتقلّبه وبكائه فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين أنه الظالم المعتدي المفرط الظلم ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي مظهراً لقلة المبالاة فيسبق الى نفس من لا يحقق النظر أنه ظالم وهذا مكان ينبغي التثبت فيه ومغالبة ميل النفس جملةً وأن لا يميل المرء مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء

من عجائب الاخلاق أن الغفلة مذمومة وان استعمالها